الأسوة الحسنة

الدكتورعبد الحميد خرّوب*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله الذي بعثه الله بالحق بشيراً ونذيراً، فبلغ الرسالة، وأَدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجعلنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى أصحابه أجمعين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد!

رغم التطوّر الهائل الذي أنتجته الحضارة الحديثة في شتّ مجالات الحياة، فإنّ الإنسان الذي هو قلبها النّابض لازال يعاني من مشكلات عويصة متنامية، فالمنتجات الكثيرة التي ذلّلت له الصّعوبات قد زادت من حجم معاناته،وحركته غير المتوازنة أثّرت سلبا في البيئة وأساءت إلى جغرافيتها، والتباين الشّديد بين الشّمال المنتج والجنوب المستهلك أدّى إلى ظواهر سلبية بالغة التأثير والخطورة، فارتفاع الأسعار مع قلّة الغذاء وتزايد السكّان في تفاقم مستمرّ، وأكثر من مليار نسمة يعانون الفقر،والموتى من شدّة الجوع بلا حساب، والحروب قد حادت عن غايتها ولطّخت بقذارتها جبين البشريّة، وتطوّرت أساليب الجرائم المنظّمة، وانتشرت المعاصي المهلكة، وضيّقت العولمة الخناق على الهويات المختلفة، والخصائص المتنوّعة، والمناهج المتعدّدة، وأحدثت الثّورة المعلوماتية تحوّلات كبيرة في الحياة المادية والمعنوية، ونخر الفساد القيم الاجتماعية، وكاد يئد كلّ فضيلة باقية، وتقنّع الانحراف بمفاهيم غريبة عن الفطرة، وسنّت قوانين لحمايته! بل والدّعوة إليه!، وأفقد غياب الأمن الإنسان معنى الحياة، والعنف أصبح ظاهرة تؤرّق المجتمع الإنساني بشراسة تستنكرها وحوش الغاب، وقد استعصى علاج هذه الظّاهرة التي تحتضنها ثقافة تؤسّس لها وتغذّيها، ومرجعية توجّهها وتحميها، ومهما اختلفت مصادر هذه الثّقافة فإنّها رزية كبرى ابتلي بها تفكير الإنسان وأفقدته توازنه، وسواء أكان العنف من السّلطة أو الأفراد أو الجماعات، فثقافة العنف لاتتورّع عن تدمير طاقات المجتمع وإهلاك الحرث والنّسل.

ومع هذا كلّه، هناك مشكلات أخرى معنوية يعاني منها الإنسان في حياته الفكرية وعلاقاته الأسرية والاجتماعية، وفي ميادين العمل والدّراسة، وفي سعيه لتحقيق أمانيه من المنصب والجاه والمال، وفي سباقه مع الزّمن لمواكبة متطلّبات الحياة العصرية التي تتطوّر بشكل سريع.

* الأستاذ المساعد بقسم الحديث وعلومه،كلية الدراسات الإسلامية(أصول الدّين)، الجامعة الإسلامية العالمية، اسلام آباد، باكستان.

وهذه الشّبكة المعقّدة من المشكلات الفكرية، والسّياسية والاقتصادية والثّقافية، والاجتماعية والأخلاقية التي اكتسبها الإنسان بيديه جرّاء بغيه وجهله، أفرزت أزمات خانقة

ظلّت تضغط عليه من كلّ جهة حتّى أصابته بوباء الضّغوط النّفسيّة، فنتج عنها التوتّر والقلق والخوف والاكتئاب والإحباط وانفصام الشّخصية والانهيار العصبي، والاحتراق النّفسي والقنوط، وجعلته عرضة لأمراض القلب وارتفاع ضغط الدّم، وضعف المناعة، وقرح المعدة، وأمراض الحساسية والرّبو، وقلّة النّوم وغيرها من التأثيرات السّلبية على وظائف الجسم المختلفة.

ولقد كان تأثير المشكلات المعنوية على الإنسان أشدّ من غيرها، فهو حين يكون كئيب النّفس، مهموم القلب، مسلوب الإرادة، ممزّق الشّعور، تتقاذفه الأوجاع يمينا وشمالا، يفقد صموده في وجه الصّعوبات ويعجز عن مقاومتها، وسرعان ما يستسلم لها مردّدا مقولة الإذعان والفشل:"ليس بالإمكان أفضل ممّا كان" هذه المقولة التي يسلّي بها نفسه، هي بحدّ ذاتها من المشكلات الموروثة التي لازالت حاضرة بقوّة في حياته، وتشلّ حركته عن التغيير، وقد أدّى ضعف الإنسان أمام هذه المشكلات إلى الانتشار الواسع للعيادات النّفسية ورواج سوق الشّعوذة والخرافة التي يلجأ إليها الإنسان ظنّا منه أنّه قد يعثر فيها على حلول لمشكلاته،فإذا به يصبح مستسلما خنوعا لقوى النّفس الهابطة، متعلّقا بالأوهام والأماني الكاذبة، والعجيب أنّ هذا النّفق المظلم لم يلجه الأميّ والجاهل فقط حتّى نقول إنّ الجهل والأميّة هما سببا الوقوع في هذه الهاوية، بل إنّ كثيرا من ضحايا هذه الطّريقة هم من المتعلّمين والمثقّفين! وإنّ فئات كثيرة من شعوب العالم الإسلامي تتلف أموالا طائلة على المشعوذين الذين ينتشرون في طول البلاد وعرضها، حتى صار لكلّ ألف نسمة مشعوذ، بل وصلت الشّعوذة إلى الفضائيات التي خصّصت لها منابر، وراحت تروّج لها بغية الرّبح الوفير الذي تجنيه من الدّجل!.

وللحياة وجه آخر، جميل محيّاه، مشمس نهاره، مقمر ليله، خير وبركة أيّامه، يفيض رجاء وأملا، ويتمتّع فيه الإنسان بزينة الله التي أخرجها لعباده والطيّبات من الرّزق، وينعم فيه بالطمأنينة والاستقرار، ويدّخر في نفسه إرادة قويّة ومقدرة كبيرة على تجاوز العقبات التي تعيق نهضته وتهدّد استقرار حياته، ولكنّ هذا الوجه الجميل حجبت خيره عن كثير من النّاس ضبابية الرّؤية، وحالت دونه الأزمات الجاثمة عليهم، وصدّتهم عنه أنظمة تمنّيهم بحياة أفضل في ظلّ فلسفتها وتشريعاتها التي أثبتت عجزها وفشلها، وفقدت ثقة شعوبها التي انتظرت طويلا الغد المشرق الذي تعدها به، فلم تجد بدّا من الخروج عليها ومطالبتها بالرّحيل، إلاّ أنّ هذه الأنظمة مع إفلاسها الشّديد لازالت تتشبّث بمقاليد الحكم وتزيّن للنّاس أعمالها، وتختلق المبرّرات لانتكاسها، وتفتعل العراقيل في طريق البديل الحقّ الذي تشرئبّ إليه الشّعوب، وتناضل من أجل تحقيقه.

ولازالت حلبة الحياة تشهد باستمرار فصولا جديدة من التّدافع الذي توسّعت ميادينه، وتطوّرت وسائله وفتح باب التّنافس على مصراعيه لطرح البدائل المنقذة، وظهور الطاقات الكامنة، وتحريك القدرات الإبداعية المختلفة، إلاّ أنّ هناك إنجازات كثيرة رائعة تحوّلت إلى مصدر قلق وخوف للإنسان، حين وظّفت في الصّراع، ومحاربة الآخر، وتهميشه في الحياة، فتضاعفت مسؤولية الإنسان نحو مشكلاته، وظهرت آفاق جديدة في دراستها.

ويعدّ الدّين الإسلامي القوّة المنيعة التي كانت ولا تزال تحفظ الإنسان من نفسه ومن المخاطر التي تحيط به فليس من طبيعته أن يجعل الإنسان منكفأ على ذاته، معتزلا الحياة كما يظنّ الواهمون، إنّه منهج كامل لايترك فراغا في أيّ شيء، فهو يملأ بنور عقيدته وشريعته حياة النّفوس والقلوب والعقول والسّلوك والوجود بأكمله، ويجعل أتباعه يتذوّقون حلاوة الحياة السّعيدة في ظلّ التمسّك به، والالتزام بتعاليمه، ويعلّمهم كيف يميّزون بين الباطل والحقّ، ويغلّبون الحكمة على الطّيش، والتّسامح على الانتقام، والمحبّة على الحقد، والرّحمة على البطش، والرّفق على العنف، والأمن على الخوف، والتوكّل على التواكل، والعمل على التقاعس،ويحثّهم على الصّبر والمصابرة والتضرّع إلى الله تعالى في كلّ الأحوال، والتّنافس على كسب زمام المبادرة في الخيرات، والإيمان بتغيير الحياة بكلّ ثقة نحو الأفضل.

ألاترى التفاؤل والأمل في قوله صلّى الله عليه وسلّم لرفيق دربه أبي بكر رضي الله عنه الذي شعر بالحزن حين رأى آثار المشركين تقترب من الغار فقال مخاطبا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:"هذا الطّلب قد لحقنا يارسول اللّه"،فقال له صلّى الله عليه وسلّم: ﴿لاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[1].

هذا الموقف العظيم خلّده القرآن الكريم في قوله:﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[2]، ولمّا طويت مسافة الزّمن تجلّت للنّاس عطايا قوله تعالى: ﴿لاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فقد نصر الله نبيّه ومكّنه في الأرض، وصار أبو بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين، واليوم الذي قيلت فيه﴿لاتَحْزَنْ﴾ أصبح بداية التاريخ الهجري.

وحين اشتكى المسلمون إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم معاناتهم من اضطهاد المشركين، وخوفهم على أرواحهم وأهاليهم وأموالهم، حثّهم النّبي صلّى الله عليه وسلّم على الصّبر، وبشّرهم بتحقيق الأمن الاجتماعي في ظلّ الإسلام الذي سوف ينتصر،ويسود نظامه،وتحكم النّاس شريعته، فعن خبّاب بن الأرت رضي الله عنه قال: "شكونا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة، قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟قال كان الرّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشقّ باثنتين وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصدّه ذلك عن دينه والله ليتمنّ هذا الأمر حتّى يسير الرّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلاّ الله أو الذّئب على غنمه ولكنّكم تستعجلون"[3].

وحين حضر عدي بن حاتم مجلس النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وأبدى رغبته في اعتناق الإسلام، رأى رجلا يشكو الفقر، وآخر يشكو عدم الأمن، خشي النّبي صلّى الله عليه وسلّم أن يكون مارآه عدي سببا في صدّه عن الإسلام الذي لازال شعب دولته الفتية يعاني الفاقة،والخوف من قطّاع الطّرق، فأوحى الله تعالى إلى نبيّه بما يرغّب عديا في الإسلام ويجعله مطمئنّا إليه، روى البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم قال:"بينا أنا عند النّبي صلّى الله

عليه وسلّم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثمّ أتاه آخر فشكا إليه قطع السّبيل، فقال يا عدي هل رأيت الحيرة ؟ قلت لم أرها وقد أنبئت عنها،قال فإن طالت بك حياة لترينّ الظّعينة ترتحل من الحيرة حتّى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلاّ الله، قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دُعّار طيّئ الذين قد سعّروا البلاد، ولئن طالت بك حياة لتُفتحنّ كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز،قال كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترينّ الرّجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضّة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه"[4].

فكانت أولى هذه البشائر هي تحقيق الأمن الاجتماعي، حتّى تصير الظّعينة وهي المرأة تسافر وحدها من العراق إلى مكّة، فتطوف بالبيت ثمّ ترجع لا يتعرّض لها أحد في الطّريق، ولما سمع عدي هذه البشارة استبعدها بناء على ما يراه في الواقع، وقال في نفسه:أين دعّار طيء الذين سعّروا البلاد؟، والدعّار هم قطّاع الطّرق الذين نشروا الخوف والفزع في النّاس، وإذا كان دعّار طيء وحدهم سعّروا البلاد فكيف بدعّار كلّ الجزيرة العربية؟ وشاء الله أن يطول عمر عدي،فصار يحدّث النّاس فيقول:"فرأيت الظّعينة ترتحل من الحيرة حتّى تطوف بالكعبة لا تخاف إلاّ الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال النّبي أبو القاسم صلّى الله عليه وسلّم يخرج ملء كفّه"[5].

بهذا الأمل الكبير، وهذه الثّقة القوية غرس في نفس الإنسان الإيمان الصّادق الذي يجعله صبورا على تحمّل المشاقّ، قادرا على تجاوز الصّعوبات، متفائلا غير مستسلم لواقعه المرير، متطلّعا إلى مستقبل زاهر مشرق مهما كانت مصائبه.

وقد دأب الفكر الغربي ومن اغترّ به على تبنّي موقفا سلبيا من الدّين، أدّى به إلى إقصاء سير الأنبياء والرّسل الكرام من منظومته، وكأنّهم ليسوا جزءا من التاريخ البشري.

وهذا النّمط من التفكير مهما كانت بواعثه، قد ضيّق على نفسه آفاقا واسعة في فهم قضايا الإنسان ومعرفة طبيعة مشكلاته وأسبابها الحقيقية، فهو حين يولّي ظهره لتلك الحقبة التي تعدّ مرآة كاشفة لحقيقة الصّراع البشري على مدار التاريخ، يصعب عليه أن يقدّم فهما ناضجا وحلولا شافية لمشكلاته المستجدّة التي تبقى حلقة في سلسلة تاريخ الإنسان في هذا الوجود، لأنّ العناية بالدّراسة المركّزة لحركة المجتمعات في التاريخ القديم والحديث، والتأمّل في طبيعة المشكلات التي كانت ولاتزال تشكّل محور العقبات التي تقف في طريق استقرار الحياة وسعادة الإنسان، والقراءة العميقة لسير الأنبياء والمرسلين، وتدقيق النّظر في دعواتهم ومناهجهم، تجعل الإنسان على بصيرة في معالجة مشكلاته الحالية، وتمنحه حصانة كافية لما سيواجهه لاحقا، فالحاضر هو مستقبل الماضي وماضي المستقبل.

وفي خضمّ هذه الدوّامة المرهقة التي يتقلّب فيها الإنسان، ويشعر فيها باختناق شديد من واقعه الأليم يراوده الحنين إلى حياة بدائية ظنّا منه أنّها قد تريحه من أوجاعه، وتكون حلاّ لمشكلاته، فتخلّصه من ضنك العيش وتعاسة الحياة، والإنسان بطبعه ميّال إلى الحياة الهادئة الرّتيبة، إذ أنّها لا تكلّفه جهدا كبيرا في التعامل معها، وهذا ما يزيد مشكلته تعقيدا حينما يبقى

مصرّا على مقاومة التغيير الذي هو حاصل لامحالة، وإذا مااستجاب وتفاعل إيجابيا افتقد الأسوة الحسنة التي يقتفي أثرها ويحرث حرثها، وتكون قادرة على كسب ثقته والوصول به إلى وعود صادقة، تنهي عهد الشّتات، وتحقّق له الحياة المستقرّة التي يتطلّع إليها.

فهو حين ينظر في قوافل الخيّرين يراهم كالإبل المائة لا يكاد يجد فيها راحلة(6)، فيساوره القلق ويتسلّل اليأس إلى نفسه، وداء اليأس كداء السّرطان، يتغلغل في الأعماق، ويفتك بصاحبه في صمت رهيب، ويجعل الحياة في ناظريه ليلا سرمديا، يأتي سواده على كلّ نافذة يشعّ منها الضّياء، فهو ليل لانهار له وحياة لارحمة فيها.

وهذا الشّعور وإن كان سلبيا فهو يعني أنه يتطلّع إلى حياة أفضل، إلى حياة تتجلّى فيها إنسانيته المفعمة بالمعاني النّبيلة التي تفيض بالحبّ والإخاء والرّحمة، هذه المعاني التي إن تغلغلت في شبكة العلاقات الاجتماعية تمكّنت من تقليم مخالب المشكلات وخلع أنيابها،وجعلها وديعة هادئة.

فهل يمكن أن نجد الشّخصية التي تجسّد كلّ تلك المعاني الفاضلة،وتجدّد أمل الإنسان في النّجاة، وتكون قادرة على إنقاذه من التيه والضّياع، والأخذ بيده إلى شاطىء السّلامة، وجعله راغبا في الخير والحقّ صاحب إرادة قويّة، ويبقى حبلها ممدودا امتداد الزّمن، ومحطّة لكلّ الأجيال تجدّد فيها حياتها لتغييرها نحو الأفضل؟ وهل تتحقّق هذه الحياة الفاضلة بالمثال الذي يطلّ على الإنسان من فوقه ويدعوه إلى أعلى؟ أم بالمثال الحاضر في نفسه،يحسّ به ويضمّه بين أحضانه ويتدرّج به إلى العلياء؟

أسئلة قلقة يفيض بها شعورك أيّها الإنسان فتدفعك للبحث في كلّ اتجاه، وإنّك بلاشكّ قد تعبت من البحث، ولعلّ محاولاتك المتكرّرة قد أتعبتك أكثر، ولكنّك في أعماق نفسك تشعر بضرورة ملحّة لمواصلة البحث، وهذا الشّعور الذي يراودك هو صوت الحقيقة،والمطلب في غاية الصّعوبة، ولكنّه ليس مستحيلا فمن أين تبدأ؟ وأيّ طريق تسلك؟ هل تبدأ من المثال الإنساني والنّموذج الذي صوّره الفلاسفة والمفكّرون وتعلّقت به آمال تلاشت، وأحلام تهاوت، وأصابته سهام الواقع في كبده فأخمدت صوته، وغيّبت صورته فشعرت بعدها بخيبة أمل، وهزّ عنيف، وفصام نكد، ووقفت عند مفترق الطّرق حائرا متردّدا تبحث عن طريق الخلاص فهل تهتدي إليه؟ أم تبدأ من المثال الذي ظهر على الأرض وانطلق من أعماق الإنسان يتدرّج به إلى أعلى، إلى قمّة الإنسانية؟ فأيّهما الذي يمثّل الإنسان الحقيقي؟ الذي يعبّر عنّا ويعيش معنا، ويسكن داخلنا، ويقاسمنا أوجاعنا، ويتألّم لآلامنا؟ أم الذي نطلبه فلانجده؟.

لقد تعلّقت آمال فئة من النّاس بالطّريق الأول، وتجوّلوا في جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابي ولكنّ آمالهم بقيت تعلّق في الفضاء لا تمشي على الأرض، أفلا نجرّب الطّريق الثّاني؟

هلمّ معي نتأمّل شخصية نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فهل نجد فيها ما يحتضن النّاس جميعا ؟ هل نجد فيها المعنى الحقيقي للإنسان؟ هل نجد فيها الرّوح الرّحيمة التي ضلّت الإنسانية الطّريق إليها وشقيت حين ولّتها ظهرها؟

إنّ سيّد الخلق محمّدا صلّى الله عليه وسلّم أصابه الأذى كما أصاب غيره من النّاس، فكان بينهم يألم كما يألمون، ويفرح كما يفرحون، ويحزن كما يحزنون، ذاق ألم الجوع، ومرارة اليتم، وضيق الحصار، وعذاب الطّرد، ولكنّه كان ذا شكيمة قويّة، ونفس كبيرة لا تتنازل عن معنى الإنسان، وظلّ في طريقه سائرا، وعلى دعوته صامدا، لم تلن له قناة ولم يكلّ أو يملّ، وتوافدت عليه قوى الظّلم من كلّ مكان، وتجمّعت ضدّه لتتخلّص منه، ففتح لها ذراعيه واحتضنها وجعل منها روافد خير للإنسانية، وهذه هي العظمة الحقيقية التي لاتقف عند الغلبة على العدوّ،بل في القدرة على جعل هذا العدوّ صديقا حميما!!

إنّك حين تطالع سير العظماء في تاريخ البشريّة،ستجد نفسك مضطرّا لأن تتكلّف لهم الأعذار في جوانب كثيرة من شخصياتهم وإنجازاتهم، وحين تمطرهم بوابل من المديح الرّفيع، والثّناء العظيم، ستشعر في أعماق نفسك بالمبالغة والمغالاة، ولكنّك حين تقرأ سير الرّسل الكرام، وخاصة خاتمهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم وتفتّش في شخصيته بكلّ ماتجمّع للعقل البشري من أدوات البحث العلمي الواسع، وموضوعية التقييم الدّقيق ستشعر في أعماق نفسك بالتقصير في إعطاء هذه الشّخصية حقّها، وحين تمدحه بأبلغ ما انتهت إليه فصاحة الإنسان، ستجد عبارات المدح والثّناء تعظم معانيها، وتشعّ أنوارها، وتزداد حلاوتها كلّما اقتربت من القمّة الشّامخة المتلألئة بأنوار العظمة في قوله تعالى﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[7].

قد تظنّ أنّ هذا الرّجل من صنع الخيال، ويقول لك التاريخ الموثّق إنّه بشر كان يأكل الطّعام، ويمشي في الأسواق، إنّه نموذج يتحرّك فوق الأرض، ماشئت أن ترى فيه من كمال إنساني إلاّ رأيته.

ومن علماء الغرب رجال درسوا سيرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم ، ونظروا فيها بدقّة كبيرة، وكلّما أعادوا النّظر ازداد إعجابهم الشّديد بشخصيته المثالية التي وجدوها حقيقة واقعية، فأعلنوا بكلّ فخر اعترافهم بعظمة النّبي صلّى الله عليه وسلّم وفضله على الإنسانية، وسالت أقلامهم في مدحه بأجمل الكلمات وأعذبها، وكتبوا في سجلّ التاريخ شهادات صادقة في وصف نبي الرّحمة، وأشادوا بفضله وفضائله، وإن كانت كتاباتهم لا تخلو من عثرات في مواطن كثيرة، إلاّ أنّها تتّفق في مجملها على عظمة النّبي صلّى الله عليه وسلّم.

وهاهو الدكتور مايكل هارت في كتابه"الخالدون مائة"بعد جهد كبير وبحث طويل في أهمّ رجالات التاريخ، يعلن بإنصاف سبب اختياره لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم على رأس المائة الأوائل فيقول:"إنّ اختياري محمّدا ليكون الأوّل في قائمة أهمّ رجال التاريخ، ربّما أدهش كثيرا من القرّاء إلى حدّ قد يثير بعض التساؤلات ولكن في اعتقادي أنّ محمّدا صلّى الله عليه وسلّم كان الرّجل الوحيد في التّاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الدّيني والدّنيوي،لقد

أسّس محمّد صلّى الله عليه وسلّم ونشر أحد أعظم الأديان في العالم وأصبح أحد الزّعماء العالميّين السياسيّين العظام، ففي هذه الأيّام وبعد مرور ثلاثة عشر قرنا تقريبا على وفاته لا يزال تأثيره قويّا عارما"[8].

وهذا المؤرّخ الإنجليزي توماس كارلايل بعد أن قرأ سيرة نبيّ الرّحمة، وعرف عظمته، أعلن على الملأ حبّه له فقال:"وإنّي لأحبّ محمّدا لبراءة طبعه من الرّياء والتصنّع"[9]، ويقول أيضا:"وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم، بعيد الهمّ كريما برّا رؤوفا نقيّا فاضلا حرّا، رجلا شديد الجدّ مخلصا، وهو مع ذلك سهل الجانب، ليّن العريكة، جمّ البشر والطّلاقة حميد المعشر حلو الإيناس، بل ربّما مازح وداعب، وكان على العموم تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق لأنّ من النّاس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله"[10].

ويقول ول دورانت:"إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في النّاس، قلنا إنّ محمّداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الرّوحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجيّة حرارة الجوّ، وجدب الصّحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أيّ مصلح آخر في التاريخ كلّه"[11].

ويقول الباحث الفرنسي كليمان:"لم يكن محمّدا نبيّا عاديا، بل استحق بجدارة أن يكون خاتم الأنبياء لأنّه قابل كلّ الصّعاب التي قابلت كلّ الأنبياء الذين سبقوه مضاعفة من بني قومه...نبيّ ليس عاديا من يقسم أنّه"لو سرقت فاطمة ابنته لقطع يدها"!ولو أنّ المسلمين اتّخذوا رسولهم قدوة في نشر الدّعوة لأصبح العالم مسلما"[12].

وأمّا المفكّر الإيرلندي برناردشو فلم يجد بدّا من الاعتراف بشدّة حاجة العالم إلى رجل في مثل تفكير الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ، ويعتبره طريق نجاة العالم من الشّرور التي يعاني منها فيقول:"إنّ العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمّد صلّى الله عليه وسلّم هذا النّبي الذي وضع دينه دائما موضع الاحترام والإجلال، فإنّه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالد خلود الأبد، وإنّي أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدّين على بيّنة وسيجد هذا الدّين مجاله الفسيح في القارّة الأوروبيّة بعد هذه الحرب، وإذا أراد العالم النّجاة من شروره فعليه بهذا الدّين، إنّه دين التعاون والسّلام والعدالة في ظلّ شريعة محكمة لم تدع أمرا من أمور الدّنيا إلاّ رسمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبداً"[13].

وتأمّل مارسيل بوازار في شخصية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وبعد دراسة عميقة لها، أقرّ له بالنّبوّة فقال:"وكما يظهر التاريخ محمّدا صلّى الله عليه وسلّم قائدا عظيما ملء قلبه الرّأفة يصوّره كذلك رجل دولة صريحا، قويّ الشّكيمة، له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كلّ صاحب حقّ حقّه، ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات في الوقت الذي كان النّصر العسكري قد بدأ يحالفه، وإذا تذكّرنا أخيرًا على الصّعيد النّفساني هشاشة السّلطان الذي كان يتمتّع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلّي بها، استطعنا أن نستخلص أنّه

لابدّ أن يكون محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به إنسانًا فوق مستوى البشر حقًّا وأنّه لابدّ أن يكون نبيّا حقيقيّا من أنبياء الله"[14].

وقد كان أصحاب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أعرف النّاس به، وأكثرهم خلطة له وقربا منه، ومع ملازمتهم الدّائمة له في كلّ أحواله، لم يجدوا فيه إلاّ مايقرّبهم إليه ويحبّبهم فيه، ويعظّمه في أعينهم التي وصفت خلقه وأخلاقه بأوصاف تدلّ على حبّهم العظيم له، وإيمانهم العميق برسالته، وإعجابهم الشّديد بشخصيته، فهذا الصّحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه يصف النّبي فيقول:"كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليس بالطّويل البائن ولا بالقصير ولا بالأبيض الأمهق، وليس بالآدم، وليس بالجعد القطط، ولا بالسّبط، بعثه الله على رأس أربعين سنة، فأقام بمكّة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، فتوفّاه الله وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء"[15] أزهر اللّون كأنّ عرقه اللّؤلؤ، إذا مشى تكفّأ، ولامسست ديباجة ولاحريرة ألين من كفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"[16].

وقال فيه عمرو بن العاص رضي الله عنه:"إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[17]وحرزا للأمّيّين، أنت عبدي ورسولي،سمّيتك المتوكّل، ليس بفظّ ولا غليظ ولاسخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيّئة السيّئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتّى يقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صمّا وقلوبا غلفا"[18]، وقال البراء بن عازب رضي الله عنه:"ما رأيت شيئا قط أحسن منه صلّى الله عليه وسلّم "[19]، وأمّا زوجه عائشة رضي الله عنها فإنّها وصفته بوصف جامع دقيق فقالت:" خلق نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم كان القرآن"[20].

ولم يكن هذا الحبّ مجرّد عواطف نبيلة تفيض بها قلوب الصّحابة رضوان الله عليهم،وتتغنّى بها ألسنتهم بل سطّروا في سجّل التّاريخ أروع المواقف في حبّه صلّى الله عليه وسلّم وطاعته والتضحيّة من أجله، فهذا أبو بكر الصّديق رضي الله عنه رافق النّبي صلّى الله عليه وسلّم في هجرته إلى المدينة، وكان مرّة يمشي بعده ومرّة قبله، فقال له الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:"يا أبابكر ما لك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي؟ فقال:يارسول الله أذكر الطّلب فأمشي خلفك، ثمّ أذكر الرّصد فأمشي بين يديك، فقال:يا أبا بكر لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟ قال:نعم والذى بعثك بالحقّ"[21]، وحينما وصل إلى المدينة استظافه أبو أيّوب الأنصاري رضي الله عنه، فنَزل النّبي صلّى الله عليه وسلّم في أسفل البيت، فاستعظم أبو أيّوب أن يكون هو وأهله في أعلاه، فتنحّوا فباتوا في جانب، ثمّ طلب من النّبي صلّى الله عليه وسلّم أن يقيم في الأعلى، فقال النّبي صلّى الله عليه وسلّم:" السّفل أرفق"، فقال لا أعلو سقيفة أنت تحتها فتحوّل النّبي صلّى الله عليه وسلّم في العلوّ وأبو أيّوب في السّفل "[22]، بل إنّ شدّة حبّهم له جعلتهم يتسابقون على فضل وضوئه، فعن أبي جحيفة ذكر عن أبيه، قال دُفِعت إلى النّبي

صلّى الله عليه وسلّم وهو بالأبطح في قبّة كان بالهاجرة فخرج بلال فنادى بالصّلاة، ثمّ دخل فأخرج فضل وضوء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،فوقع النّاس عليه يأخذون منه"[23].

وكانوا يخاطرون بأنفسهم، ويستلذّون العذاب، ويضحّون بالنّفس والنّفيس من أجل سلامته، فهذا زيد بن الدّثنة رضي الله عنه لمّا أسره الوثنيّون في مكّة" وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش فيهم أبوسفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل أنشدك الله يازيد أتحبّ أنّ محمّدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنّك في أهلك؟ قال والله ما أحبّ أنّ محمّدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، قال يقول أبو سفيان مارأيت من النّاس أحدا يحبّ أحدا، كحبّ أصحاب محمّد محمّدا !"[24].

وهذا الصّحابي الجليل أبو طلحة رضي الله عنه يقول للنّبي صلّى الله عليه وسلّم في غزوة أحد وقد أشرف ينظر إلى القوم:"يانبيّ الله بأبي أنت وأمّي لا تشرف، يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك"[25].

وهذه أمّ عامر الأشهلية رضي الله عنها امرأة من الأنصار، قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت:ما فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟قالوا:خيرا، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرنيه حتّى أنظر إليه فلمّا رأته قالت:كلّ مصيبة بعدك جلل"[26].

والصّحابية كبشة بنت عبيد أمّ سعد بن معاذ رضي الله عنهما، قتل ابنها عمرو بن معاذ فخرجت تعدو نحو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه فقال سعد:"يارسول الله أمّي، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:"مرحبا بها، فدنوت حتّى تأمّلت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت:"أمّا إذ رأيتك سالما فقد أشوت المصيبة "[27].

وصدق حسّان بن ثابت رضي الله عنه حين وصف النّبي صلّى الله عليه وسلّم فقال:

وأحسن منك لم تر قط عيني   وأجمل منك لم تلد النّساء
خلقت مبرّءا من كلّ عيب   كأنّك خلقت كما تشاء

ومع هذه المكانة العظيمة التي حازها النّبي صلّى الله عليه وسلّم ولا كفاء لها، ها هو يصف نفسه فيبدي تواضعه وتقديره لإخوانه الأنبياء فيقول:"إنّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلاّموضع لبنة من زاوية، فجعل النّاس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاّ وضعت هذه اللّبنة، قال فأنا اللّبنة وأنا خاتم النّبيّين "[28].

هذا هو رسول الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم الذي جعل الله بعثته منّة على المؤمنين فقال تعالى:﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[29].

وجعل طاعته من طاعته سبحانه فقال:﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[30].

وأمر سبحانه من يدّعي محبّته أن يتّبع رسوله فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(31).

وجعل تعالى وجود نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم بين النّاس رحمة أنقذت البشرية من استئصال شأفتها ومنعت عنها عقوبة الهلاك الجماعي الذي كان الله تعالى يسلّطه على الذين يكفرون به وبرسله،كما جرى لقوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم السّابقة، قال تعالى:﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(32).

وحين قرأ صلّى الله عليه وسلّم قول الله تعالى على لسان نبيه عيسى عليه السّلام:﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(33)اهتزّ قلبه رحمة بأمّته، وفاضت عيونه بالدّمع شفقة عليها من يوم الحساب وتوجّه إلى ربّه يناجيه في خشوع قائلا:"اللّهمّ أمّتي أمّتي وبكى"، لكن سرعان ما نزل الأمين جبريل بالبشرى مهدّئا من روعه قائلا له:إنّ الله يقول لك:"إنّا سنرضيك في أمّتك ولا نسوءك"(34).

ما أرفع مقامه الذي جعل الله تعالى يرضيه في أمّته، ويرضيه في تحويل القبلة فيقول:﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾(35)، ويعطيه حتّى يرضى فيقول تعالى:﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(36).

وكليم الله موسى عليه السّلام يطلب رضى ربّه فيقول:﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾(37)، ويطلب من ربّه أن يشرح له صدره فيقول:﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(38)، ورسول الله شرح الله له صدره قبل أن يطلب منه فقال تعالى:﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(39).

وخاطب الله المرسلين بأسمائهم فقال:"ياآدم، يانوح، ياإبراهيم، ياموسى، ياعيسى، يازكريا، يا يحيى...لكنّه خاطب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بقوله:ياأيّهاالنّبي، يا أيّها الرّسول، يا أيّها المزمّل، يا أيّها المدّثر، ونهى سبحانه عن دعاء النّبي باسمه فقال:﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾(40)، وأمر بأن تخفض الأصوات بين يديه فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾(41).

وأقسم بحياة نبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم فقال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(42).

وزكّى الله عقل نبيه محمّد صلّى الله عليه وسلّم فقال:﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾(43)، وزكّى لسانه فقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾(44)، وزكّى فؤاده فقال:﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾(45).وزكّى بصره فقال:﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾(46).

ومدح الله أنبياءه وأثنى عليهم لأخلاقهم الكريمة، وذكر لكلّ نبيّ صفات معيّنة، فقال في إبراهيم عليه السّلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾(47)، وقال في إسماعيل عليه السّلام:﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا﴾(48) وقال في موسى عليه السّلام:﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا﴾(49).

لكنّه في الثّناء على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم،ذكر أنّه قد نال الكمال الخلقي فقال تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[50] ولم يقل سبحانه:وإنّك لذو خلق عظيم، بل قال على خلق عظيم، لأنّ التعبير بعلى يدلّ على الاستعلاء فالنّبي صلّى الله عليه وسلّم مستول على الأخلاق الفاضلة متمكّن منها،يقول سيّد قطب رحمه الله:"تجيء الشّهادة الكبرى والتكريم العظيم:﴿وإِنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾...وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثّناء الفريد على النّبي الكريم ويثبت هذا الثّناء العلوي في صميم الوجود!ويعجز كلّ قلم، ويعجز كلّ تصوّر، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربّ الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿وإِنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ﴾ ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله ممّا لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين، ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمّد صلّى الله عليه وسلّم تبرز من نواح شتى: تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال يسجّلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردّد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله، وتبرز من جانب آخر من جانب إطاقة محمّد صلّى الله عليه وسلّم لتلقيها وهو يعلم من ربّه هذا قائل هذه الكلمة:ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته؟ ما مداها ؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين"[51].

ولقد رفع الله ذكر النّبي صلّى الله عليه وسلّم على سائر الخلق وفي كلّ زمان فقال:﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[52]

ورغم هذه المكانة العظيمة التي رفعه الله إليها،فقد كان يذكر بشريته على الدّوام في تواضع فيقول:اللّهم إنّما محمّد بشر،يغضب كما يغضب البشر"[53]، وأمّا الذين استنكروا عليه بشريته بقولهم:﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[54]، فقد أجاب الله تعالى عن هذه الشّبهة فقال:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾[55] وأخبر تعالى نبيّه أن يرّد عليهم فيقول:﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾[56].

وكان صلّى الله عليه وسلّم ينهى عن المبالغة في مدحه فيقول:"لا تطروني كما أطرت النّصارى ابن مريم فإنّما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله"[57].

"وكان الصّحابة ولم يكن شخص أحبّ إليهم من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ،إذا رأوه لايقومون له لعلمهم بكراهيته لذلك"[58].

هذه شخصية النّبي صلّى الله عليه وسلّم مشكاة الهدى، ومنار السّبيل، والنّجم السّاطع يمشي على الأرض إنّه الشّمس التي أضاء نورها كلّ مكان، إنّه السّماء بنجومها المتلألئة نزلت إلى الأرض وجاءت إلى النّاس تسعى في سيرته العطرة، إنّه النّداء الذي لبّى استغاثة الفطرة الضّالة وأخرجها من الظّلمات إلى النّور، إنّه القمّة النّاضرة التي إذا نظرت إليها من أيّ جهة، لم تر نظيرا لها، فكلّ مافيها ينطق بصدق نبوّته، ويغري بالتأسّي به، إنّه المثل الأعلى الذي بشّر به الأنبياء السّابقون وتلهّف إليه المستضعفون، وتخيّله الفلاسفة والمفكّرون، وتشوّق إليه العلماء

والحكماء، وتغنيّ به الشّعراء والأدباء، وتطلّعت إليه قلوب النّاس أجمعين، وإنّه لفخر عظيم للبشرية أن تنتسب إليه، وتقتفي أثره، وتصلّي عليه صباح مساء.

إنّك أيّها الإنسان مهما بحثت في سير عظماء التاريخ فلن تجد سيرة حفظت بدقّة متناهية، وجديرة بأن تكون مصباح هداية، ومنهاجا كاملا لكلّ أجيال البشرية،كسيرة الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، وهذا المستشرق بودلي يقرّ بهذه الحقيقة فيقول: إنّنا لانجد مادوّنه معاصرو موسى أوكونفوشيوس أوبوذا ولا نعرف إلاّ بعض شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته، ولانعرف شيئا عن الثّلاثين سنة التي مهّدت الطّريق للسّنوات الثّلاث التي بلغ فيها أوجّه، ولكنّنا نجد أنّ قصّة محمّد واضحة كلّ الوضوح، ففي سيرة محمّد نجد التّاريخ بدل الظّلال والغموض، ونعرف الشّيء الكثير عن محمّد كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا في أزمان أكثر قربا من زماننا وما كان تاريخه الخارجي وشبابه وأقاربه وعاداته خرافة من الخرافات، ولا شائعة من الشّائعات وما كان تاريخه الدّاخلي وقد وضح بعد رسالته، برواية مبهمة لمبشّر غامض أو مشوّش"[59].

ويقول المستشرق غوستاف لوبون:"نعرف ما فيه الكفاية عن حياة محمّد، أمّا حياة المسيح فمجهولة تقريبا وإنّك لن تطمع أن تبحث عن حياته في الأناجيل"[60].

ولقد أزرى خصوم الإسلام بأنفسهم،واجترحوا السيّئات حين ضلّلوا شعوبهم في حقيقة شخصية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وشوّهوا صورته الرّائعة في أذهانهم، ولعلّ مردّ ضلالهم إلى جهلهم، وعدم اطّلاعهم على سيرته الطّاهرة، والاكتفاء بترديد ما يتناهى إلى أسماعهم من شبهات وأقاويل، ومن هؤلاء الخصوم خلف محترفون، هم أشدّ مكرا من أسلافهم، وقد ظنّوا أنّه بإمكانهم تحقيق ما عجز عنه أجدادهم، فقادوا حملة شرسة استغلّوا فيها وسائل الإعلام المتعدّدة، والفضائيّات المتنوّعة، يبثّون من خلالها سيولا من الإساءة إلى أعظم إنسان في تاريخ البشرية، وقد منعتهم من الإنصاف والعدل، نار العداوة المستعرة في نفوسهم، وغشيهم دخّانها، فصاروا ينظرون إليه بعيون رمداء، وقلوب عمياء، ويتهافتون في أقوالهم، ويتّهمونه ظلما بالقسوة والعنف، ويتنكّرون لمظاهر رحمته التي هي أوضح من الشّمس في رابعة النّهار، وصدق فيهم قول البوصيري:

قد تنكر العين ضوء الشّمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم[61]

وليس التجنّي على حقائق التاريخ جديدا على هؤلاء المحترفين، فإنّ ماتوارثته العقلية الغربية من نظرة سلبية عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم أغرتهم بفعلهم الشّنيع، ودفعتهم للاستهزاء به والسّخرية منه، وقد أخبر الله تعالى نبيّه أنّ هذا الاستهزاء قد جرى مع الرّسل السّابقين فقال تعالى:﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوامِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[62]، ولئن أفلح هؤلاء الخصوم في إثارة الشّبهات حول بعض الحقائق التي اشتبهت عليهم، إلاّ أنّه قد خاب سعيهم في قلب تلك الحقائق وطمسها، بل كان مافعلوه سببا ليطّلع الكثير ممّن يجهل الإسلام على سيرة النّبي العطرة، فأقبل النّاس على الإسلام أكثر من ذي قبل، وصدق أبو تمّام إذ يقول:

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النّار فيما جاورت   ماكان يُعرف طيبُ عَرف العود[63]

وياله من دين! كلّما وجّه له خصومه ضربات اعتقدوا أنّها القاضية،كلّما امتدّ نوره في الآفاق، وهوت أفئدة النّاس إليه! وهكذا شأن الحقيقة في التاريخ، وإنّ في ذلك لعبرة لقوم يعقلون، وأمّا الذين أصرّوا على السّخرية من النّبي صلّى الله عليه وسلّم والاستهزاء به بعدما تبيّن لهم الحقّ، فإنّ الله تعالى قد كفى نبيّه أمرهم فقال:﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾(64).

إنّ هؤلاء الذين اتّهموا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بالعنف بهتانا وزورا،لم يستمعوا لنداء العقل الذي طالما ادّعوا أنّهم أصحابه وأربابه،وولّوا ظهورهم للموضوعية التي يتغنّون بها في كلّ محفل، وانقادوا وراء أحقادهم الدّفينة، وتركوها تعمل عملها، وإلاّ فإنّ ما اتّصفت به شخصية الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من عفو لا نظير له، ورحمة لا سابقة لها، شهد لها العدوّ قبل الصّديق، ولا يجحدها إلاّ مكابر، فرحمته صلّى الله عليه وسلّم لم تختزل في الدّموع والآهات والحسرات، بل تحوّلت إلى حركة في الحياة تختزن في داخلها عمق المعنى الإنساني، فقد كانت رحمته صلّى الله عليه وسلّم مراعية لأحوال النّاس أجمعين شاملة للقريب والبعيد، الصّديق والعدوّ، المؤمن والكافر، المسلمين واليهود والنّصارى الإنسان والحيوان والأشياء، فصفة الرّحمة في شخصيته صلّى الله عليه وسلّم استوعبت كلّ شيء، لأنّه كان رحمة في كلّ شيء في التربية والتعليم، في الدّعوة والتشريع، في الحرب والسّلم، في الأسرة والمجتمع، وفي ميادين الحياة كلّها، فرحمته عالمية، كيف لا وقد قال فيه ربّه:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(65).

إنّ التأمّل العميق في شخصية المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يفتح قلوبا غلفا ويزيل الغشاوة عن الأبصار، ولايبقي مجالا للشكّ في نبوّته، ولولم يعرف الإنسان من سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم غير مظاهر رحمته، لأغنته عن البحث في أدلّة صدقه وقامت عليه الحجّة، فكيف بمن وفّق إلى قراءة سيرته كاملة؟ يقول ابن حزم رحمه الله:"إنّ سيرة محمّد صلّى الله عليه وسلّم لمن تدبّرها تقتضي تصديقه ضرورة وتشهد له بأنّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حقّا،فلولم تكن له معجزة غير سيرته صلّى الله عليه وسلّم لكفى"(66).

فهل جزاء هذه الشّخصية التي احتضنت الإنسان في داخلها، وعاشت حياتها للنّاس أجمعين،وكانت رحمة للعالمين، أن تكون موضعا للاستهزاء والسّخرية؟ وتطالها ألسنة جاهلة بالتشوية والإيذاء؟ فتبدّل حسناتها سيئات!

إنّ من أساء لنبيّ الرّحمة محمّد صلّى الله عليه وسلّم فقد أساء لنفسه وللنّاس جميعا، لأنّ هذا الرّسول جاء لنا جميعا، جاء للإنسان وعاش للإنسان، ولم يفارقه حتّى وضع الإصر والأغلال التي كانت عليه، وترك بين يديه مصباحا يضيء له الطّريق، وميراثا من القيم يهديه سواء السّبيل، فمن حاد عن هديه ورغب عن سنّته، أصبح عاريا مهانا ولو بعد حين، وصدق إقبال إذ يقول:"لا تعجبوا إذا اقتنصتُ النّجوم، فأنا من أتباع ذلك السيّد العظيم، الذي تشرّفت بوطأته الحصباء، فصارت أعلى قدرا من النّجوم....جاءته بنت حاتم أسيرة، سافرة الوجه مطرقة فاستحيا النّبي وألقى عليها رداءه..يارسول الله:نحن أعرى من السيّدة الطّائية! نحن عراة ضعاف أمام أمم العالم.."(67).

نعم نحن عراة ضعاف أمام أمم العالم، ولكن بين أيدينا ما يجعلنا أمّة قويّة رائدة، وهذه السيّدة حليمة السّعدية خرجت من أرضها التي لا أرض أجدب منها، وجاءت إلى مكّة تجرّ مخايل الفقر، فأقبلت على يتيم آمنة وضمّته إلى صدرها، ففتحت عليها بركات من السّماء والأرض وهو لايزال في المهد صبيّا، فأيّ بركات ورحمات ستحلّ بأمّتنا إن رجعت إلى هديه وأخذت بسنّته وقد صار رسولا نبيّا؟

فبأبي وأمّي أنت يارسول الله ماأعظم قدرك! وما أرفع مقامك! وما أكرمك من نبيّ! ياصفوة الخلق، وياخير البريّة وياسيّد المرسلين، وياحبيب ربّ العالمين، عليك أفضل الصّلوات وأزكى التّساليم، أبعد هذا المقام الرّفيع الذي حباك به الله ينكر فضلك الجاحدون!؟ وبعد أن رفع الله لك ذكرك يلمزك الجاهلون!؟ وبعد الهدى الذي بعثت به للنّاس يشقون!؟ تخلص لهم النّصح وهم بك يمكرون! وتذهب نفسك حسرات عليهم وهم عليك يتآمرون! تهديهم الصّراط المستقيم فيضلّون، وتدعوهم إلى الحقّ المبين فيستكبرون، تتلطّف بهم فيتطاولون! تبكي عليهم خوفا من النّار فيضحكون! تحسن إليهم فيسيئون!

للّه ما أعظمك من نبي! وما أرحمك بالخلق! ظلمت فغفرت، ابتليت فصبرت، انتصرت فشكرت، حكمت فعدلت، قدرت فعفوت، والله ماعرفك عاقل حقّ المعرفة إلاّ أحبّك، وما عاداك إلاّ جاهل أو حسود، أعمى الحسد قلبه، فزاغ بصره، وطمست بصيرته، فعاب في الشّمس ضياءها! وفي السّماء نجومها! وفي الأرض مهادها وفي الأشجار ثمارها! وفي الأزهار رحيقها! وفي الفجر شروقه! وفي النّسيم عبيره! وعاب في الطّبيعة جمالها!

الهوامش

1- البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب فضائل أصحاب النّبي صلّى الله عليه وسلّم، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، دار السّلام، الرّياض، ط2، 1999م، ص: 613، رقم: 3652.

2 - سورة التّوبة :40.

3 - البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب الإكراه، باب من اختار الضّرب والقتل، رقم: 6843.

4 - البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النّبوّة في الإسلام، ص: 603، رقم: 3595.

5 - البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النّبوّة في الإسلام، ص: 603، رقم: 3595.

6- إشارة إلى قوله صلّى الله عليه وسلّم: "إنّما النّاس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة"، البخاري، كتاب الرّقاق، باب رفع الأمانة، ص: 1126، رقم: 6498.

7 - سورة القلم : 4.

8 - مايكل هارت، الخالدون مائة، ترجمة: أنيس منصور، الكتاب المصري الحديث، ص:13.

9 - الكتاب التذكاري للمؤتمر العالمي الرّابع للسّيرة والسنّة النّبوية الشّريفة، ملف خاصّ عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ص: 578.

10 - توماس كارلايل، الأبطال، ص: 67، 68.

11 - ول ديورانت، قصّة الحضارة، 4477/5.

12 - الباحث الفرنسي كليمان هوارت، عن محمّد في الآداب العالمية المنصفة، ص:142.

13- برنادشو، نقلا عن مجلةّ الذّكرى، عدد: 7، دورة:1، ص: 22، (نقلا عن محمّد شريف الشيباني، الرّسول في الدّراسات الاستشراقية المنصفة، ص: 196.

14- مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ترجمة: عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، 1980م، ص46.

15- البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ص: 596، رقم:3548.

16- مسلم، الجامع الصّحيح، كتاب الفضائل، باب طيب ريحه صلّى الله عليه وسلّم، ص: 1027، رقم: 6054.

17- سورة الأحزاب: 45.

18- البخاري، كتاب البيوع، باب كراهية السّخب في السّوق، ص: 341، رقم:2125.

19- مسلم، كتاب الفضائل، باب في صفة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ص: 1029، رقم: 6064.

20- مسلم، الجامع الصّحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة اللّيل ومن نام عنه أو مرض، ص: 301، رقم: 1739.

21- البيهقي، دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة، توثيق وتخريج د/عبد المعطي قلعجي، 2/ 476، ورواه ابن كثير، السّيرة النّبوية، 237/2، وقال ابن حجر العسقلاني:"مرسل"، انظر ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، 237/7، ورواه الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، كتاب الهجرة، 7/3، رقم: 4268، وقال:"حديث صحيح الإسناد على شرط الشّيخين لولا إرسال فيه ولم يخرجاه"،وعلّق عليه الذّهبي فقال:"صحيح مرسل".

22- مسلم، الجامع الصّحيح، كتاب الأشربة، باب إباحة أكل الثّوم، ص: 916، رقم: 5358، وانظر ابن هشام، السّيرة النّبوية، 498/1.

23- البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب المناقب، باب صفة النّبي صلّى الله عليه وسلّم، ص: 598، رقم: 3566.

24- ابن هشام، السّيرة النّبوية، 126/4، ورواه الطّبراني، المعجم الكبير، باب الزّاي، زيد بن الدّثنة الأنصاري، 295/5، رقم: 5291، وقال الهيثمي:"رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف"، انظر الهيثمي، مجمع الزّوائد، كتاب المغازي والسّير، باب في يوم الرّجيع، 295/6، رقم: 10339، ورى ابن حبّا قصّة مقتل زيد رضي الله عنه من غير ذكر قوله، انظر ابن حبّان، صحيح ابن حبّان بترتيب ابن بلبان، كتاب إخباره صلّى الله عليه وسلّم عن مناقب الصّحابة، 512/15، رقم: 7039، وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط فقال:"حديث صحيح.

25- البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب أبي طلحة رضي الله عنه، ص: 639، رقم: 3811.

26- ابن هشام، السّيرة النّبوية، 50/4، وجلل بمعنى صغيرة، وهي من الأضداد، ورواه البيهقي، دلائل النّبوّة، باب ماجرى بعد انقضاء الحرب، 302/3، ورواه محمّد بن جرير الطّبري بسند حسن متّصل إلى سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه،وصرّح فيه محمّد بن إسحاق بالتحديث، انظر ابن جرير الطّبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1407 هـ، 74/2.

27- الواقدي، المغازي، 315/1، وأشوت بمعنى خفّت وهانت، وانظر محمّد بن يوسف الشّامي، سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، 229/4، وانظر علي بن برهان الدّين الحلبي، السّيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، دار المعرفة، بيروت، 1400هـ، 546/2.

28- البخاري، الجامع الصّحيح، كتاب المناقب، باب خاتم النّبيّين، ص: 595، رقم 3535.

29- سورة آل عمران :164.

30- سورة النّساء :80.
31- سورة آل عمران :31.
32- سورة الأنفال :33.
33- سورة المائدة :118.
34- مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأُمّته وبكائه شفقة عليهم، رقم: 499.
35- سورة البقرة :144.
36- سورة الضّحى: 5.
37- سورة طه: 84.
38- سورة طه: 25.
39- سورة الشّرح: 1.
40- سورة النّور: 63.
41- سورة الحجرات: 2.
42- سورة الحجر: 72.
43- سورة النّجم: 2.
44- سورة النّجم: 3 - 4.
45- سورة النّجم: 11.
46- سورة النّجم: 17 - 18.
47- سورة هود: 75.
48- سورة مريم: 54.
49- سورة مريم:51.
50- سورة القلم: 4.
51- سيّد قطب - في ظلال القرآن - 288/7.
52- سورة الشّرح: 4.
53- مسلم، كتاب البرّ والصّلة، باب من لعنه النّبي صلّى الله عليه وسلّم أوسبّه، رقم: 6622.
54- سورة الفرقان: 7.
55- سورة الفرقان: 20.
56- سورة الكهف: 110.

57- البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى"واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها، مريم:16، رقم: 3445.

58- الترمذي، جامع الترمذي، كتاب الأدب، باب كراهية قيام الرّجل للرّجل، 90/5، رقم 2754، وقال:"هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه"- ورواه البخاري، الأدب المفرد، باب قيام الرّجل لأخيه، ص: 326، رقم: 946، وقال الشيخ الألباني:"صحيح"، انظر الألباني، السّلسلة الصّحيحة، 698/1، رقم: 358، ورواه الإمام أحمد، المسند، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، 132/3، رقم: 12367، وعلّق عليه شعيب الأرنؤوط فقال:"إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات.

59- بودلي، حياة الرّسول محمّد، ترجمة محمّد محمّد فرج وعبد المجيد جودة السحّار، مكتبة مصر، الفجالة 1989م، ص: 7.

60- غوستاف لوبون، حياة الحقائق، ص: 62.

61- علي بن رسول السّنوسي، شرح قصيدة البردة، مكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات، نسخة مخطوطة، رقم 4686، تاريخ النّسخ 1161 هـ، ورقة 28.

62- سورة الأنعام:10.

63- أبو الفرج عبد الرّحمن بن علي بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمّد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1- 1992م 135/11.

64- سورة الحجر: 95.

65- سورة الأنبياء :107.

66- محمّد بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، مكتبة الخانجي، القاهرة، 90/2.

67- الشيخ أبو الحسن النّدوي، الطّريق إلى المدينة، دار القلم، دمشق، بيروت، ط4، 1980م، ص: 121- 129.